وصل الحزنُ روحَك؟ هذا الذي كنتُ أحذرُهُ
فهو يوقفني حائراً في الطّريقْ.

لَمْعَةٌ بقيت في الحَجَرْ
إنّما الكلمات الّتي تُحسنينَ صياغَتَها،
غادرتْ

حمَلَتْ صوتَها وحقيبةَ ألوانها،
حَمَلَتْ عمرَها وزمانَ التّلذُّذِ تحتَ النّدىٰ
ومضَتْ.
لا أُصدِّقُ! كُلّ المسافة فارغةٌ؟ كُلُّها؟
إنّني فَزِعٌ، لا أرىٰ!

صوتُكِ المتفرِّدُ وسطَ البساتين أعرفُهُ
صاح في اللّيلِ صيحَتَهُ واختفىٰ
بعدَهُ الماءُ معتكِرٌ وزهور الحديقة زائفةٌ
لا أُميِّزُ أسماءها
اختلطَتْ كلّها،
كلّها عَلَفٌ للحصان الذي سوف يخرِقُ
بابَ السِّياجِ ليأكلَ ما قد يروقُ لَهُ.
فلماذا عَبَرْتُ القرى؟

هكذا تنتهي الكلماتُ وتبقى الستارةُ مرفوعةً ـ
كم يحار الممثِّلُ في دوره! وأنا أتَلَفّتُ
أبحثُ عن مخرجٍ للعزاءْ،
أتساءل عن وردةِ الرُّوحِ أو شارةٍ
لَمَعَتْ مرّةً في السّماءْ.

قصص في الهواءْ
هل ترين نهاياتِها أو بداياتِها، هل ترينْ؟
ليس ذا موسماً آخر للفَرَحْ،
إنَّ ذا موسمٌ لابتداء الدَّمار الكبيرْ
موسمٌ في نهايتِهِ،
بعد هذا الممرّ الغريب إلى الله والشِّعْرِ،
تعاسةُ شيخوخةٍ
وهلاكُ ضميرْ.

قصة

المسكون

د. عمر محمد الطالب

ـ ١ ـ

مضىٰ أكثر من شهر على بدء السّنة الدراسيّة. تعرّفتُ إلى الطّلبة الجيّدين، كانوا قلّة بالنّسبة لعدد طلاّب السّنة المنتهية الوفير. لم تكن سنّي تساعد على الاستمرار في العمل، فقد شارفت على الثّامنة والستّين، وهي السّن القصوىٰ المسموح فيها بالعمل في قوانيننا المدنيّة الخاصّة بالأستاذ الجامعي. قدّمتُ طلباً أكثر من مرّة لإحالتي على المعاش، فقوبل الطّلب بالرّفض. لم يعد العمل الجامعي بالنّسبة لي مغرياً؛ فلقد تحوّل إلى مجرّد دراسة ثانوية: الكتاب مقرّر، والمعلومات معادة خلو من الإبداع أو شحذ القابليّات؛ الطّالب الجيّد هو الذي يحفظ ما في الكتاب المقرّر؛ لا يحسّ الإنسان أنّه في جوّ علمي، وإنّما في مصلحة تجاريّة؛ كلّ العاملين في الكليّة يسعون إلى تحقيق مصالحهم الخاصّة وزيادة أرباحهم بوسائل منفرة أبعد ما تكون عن الرّوح العلميّة؛ لا أحد يحدّثك في العلم أو الثّقافة، بل في الأسعار وتوفّر السّلع أو فقدانها في السّوق؛ وأضحىٰ للطّلبة أعمال يولونها جلّ اهتمامهم، وأصبحت الدّراسة والتّعلّم مسائل هامشيّة. الفساد دبّ في كلّ شيء، فاحت رائحة العفن تزكم الأنوف. كنت غريباً عن الجوّ كلّه. قضيت عمري في الدّراسة والقراءة والتّأليف، أمضيت سبعاً وأربعين سنة في مهنة التّدريس، ألّفتُ أكثر من عشرين كتاباً لم توفّرْ لي مورداً يجعلني أتفرّغ للكتابة كما يحصل في الغرب، إلاّ أنّها حقّقت لي الرّاحة والاطمئنان عند كتابتها. ألّفتُ كتباً أخرى وضعتُها في الدّرج. ما فائدة النّشر إذا لم تجد أحداً يقرأ؟ شغل حبُّ المال النّاسَ؛ وإذا وجدوا فراغاً من الكدح للحصول عليه، انصرفوا إلى المسكرات أو التّلفاز، أو إلى إيقاع بعضهم بالبعض الآخر. أبعدني جوُّ الصّراع هذا من أجل الصّراع عن بؤرة الحياة المعيشة. آمنتُ دائماً بمبادئ تخالف المبادئ السّائدة. لم أتزوّجْ حرصاً منّي على ألاّ يشغلني شيء عن المعرفة. لم يهمّني المال يوماً، ربّما لأنّه توفّر لي أكثر من حاجتي. حاجاتي محدودة جدّاً، أستهلكُ القليلَ من الطّعام بسبب إصابتي بضغط الدّم وأمراض في القلب، مات بسببها أبي وإخوتي. بقيتُ وحيداً ليس لي من أقارب غير الأبعدين المنشغلين بجمع المال وتنمية ثرواتهم، لا أراهم إلاّ في المناسبات القليلة،

حتّى أقْلَعتُ أخيراً عنها. لي عددٌ محدود من الأصدقاء، أجلس وإيّاهم في مقهى أو بار أتناول فيهما كأساً من الوسكي في فترات متباعدة، وامرأة كهلة تدير لي شؤون الدّار، وهي تقدّر حاجاتي لعملها عندي ما يزيد على الرّبع قرن، لم تتركني على الرّغم من أحوالها المعيشيّة الجيّدة بعد أن كبر أولادها واحترفوا أعمالاً رائجة في السّوق، وهي تعدُّ وصيّة أمّي لها قبيل وفاتها باستمرارها في العناية بي عقداً تعهّدتْ به لأمّي التي ماتت حزينة على وحدتي. حتىٰ داري التي شيّدتها منذ أربعين سنة وكانت محجّاً لمثقّفي المدينة وتُعقد فيها النّدواتُ والمناقشاتُ، بقيتْ على حالها لم أغيِّرْ فيها شيئاً: غرفة نومي هي هي مذ كنت طالباً. شيء واحد تغيّر في الدّار: خلوّه من أمّي التي ماتت من عشرين سنة، وخلوه من المناقشات الأدبية.

لم أقتن سيّارة لأنّني أكره السّياقة. وأفضّل رياضة المشي. لم أحبّ المظاهر يوماً. أميل إلى البساطة في كلّ شيء، فأضحت حياتي بسيطة متطلّباتُها محدودة جدّاً، يفيض ما لديّ من رصيد في المصارف عن حاجتي، وهو ما يسبّب لي قلقاً لزهدي في الحياة وعدم اكتراثي بها، فلا شيء يهمّني غير القراءة والكتابة. حتّى إنّ حبّ طلبتي لي وإيثارهم إيّاي على غيري من أساتذتهم لم يشغلني كثيراً، وأعدّه أمراً عديم الأهمّيّة، مادام الطّلبة لا يهتمّون بالعلم ولا يبغون غير الشّهادة التي ما عادت تطعم خبزاً، بعد أن تدنّت المرتبات وأصبح دخل عامل بسيط أفضل بكثير من دخل موظّف.

جلستُ في غرفتي البائسة الرّطبة، أدخّن لفافتي في فترة الاستراحة. طَرَقَ الباب، أذنتُ له بالدّخول، دخل شاب نحيف عميق النّظرات، حيّاني، عرفت فيه واحداً من طلبتي الصّامتين. لم يفتح فمه بسؤال. ولم يناقش مسألة من المسائل المطروحة في المحاضرة. كلّ ما يختلف به عن الآخرين نظراته العميقة التي تفكّر بذكاء وتصمّم بإصرار. رفعت إليه وجهي مستفسراً. قدّم لي دفتراً عادياً مثل تلك الدّفاتر التي يكتب فيها الطلبة المهملون محاضراتهم قائلاً: «أشْعار نظمتها، أرجو أن تبيّن لي مدىٰ صلاحها». حاولتُ أن أبعده عنّي وألاّ أشغل نفسي بمسائل أعدّها غير مجدية، قلت: «خذها إلى أستاذ الشّعر». قال بإصرار: «أردتُ رأيك أنتَ، إذا سمح لك الوقت».

أذْعنتُ أمام إصراره. تسلّمت الدّفتر منه. ودّعني وانصرف. انصرفتُ إلى عملي. نسيتُ الدّفتر في الدّرج. كلّما صادفني في الفصل أو في ممرّات الكلية، نظر إليّ نظراته المستفسرة الصّامتة. قرأتُ ما كتب في وقت الفراغ. وجدتُ فيه بدايات مشجّعة، وأفكاراً عميقة لا تناسُب سنّه وثقافته. جاءني بعد مدّة إلى غرفتي. سلّمته الدّفتر. سألني عن رأيي في شعره، أجبته بأنّني كتبت ملاحظاتي على الدّفتر. شكرني وانصرف. لم يراجعني مرّة ثانية. كلّ ما بقي بيننا تلك النّظرات الصّامتة العميقة؛ حتىٰ إنّني لم أتعرّف على اسمه، فقد خلا الدّفترُ من أيّ اسم.

خرجتُ من الكلّيّة ظهر يوم شتائي مشمس. فضّلتُ السّيرَ إلى الدّار. اجتزتُ منطقةَ وقوف الحافلات وسيّارات الأجرة. انعطفتُ إلى الشّارع الذي يقود إلى الغابات، مستمتعاً بدفء الشّمس. سمعتُ صوتاً يحيّيني. جفلتُ قليلاً للمفاجأة. طلب منّي السّماح بمرافقتي. لم أعترضْ ولم أوافق. رافقتني نظراتُه الصّامتة، وبعد لأي جاءني صوته: «تحب المشي كثيراً».

قلت: لم يبق من العمر الكثير، وعلى أمثالي إشباعُ ناظريهم من طبيعة بلدهم.

قال مجاملاً: لا يبدو عليك أثرُ السّنين، الشّباب لا يقدرون على السّير كلَّ هذه المسافات التي تقطعها.

قلت: لم أعهدك مجاملاً.

قال بإصرار: لم أعرف المجاملة في حياتي كلّها. لم أحتجها يوماً. (ابتسم ثمّ أردف): هل جاملتني في الملاحظات التي دوّنتها على الدّفتر؟

قلت: أبداً. شعرك جيّد. ألم يقل أحد لك هذا؟!

ـ لم أعرضه على أحد سواك.

ـ أصدقاؤك؟

ـ لا يهتم أحدٌ بالشّعر هذه الأيّام. كلّهم يفكّرون في الكسب والمظاهر.

نظرتُ إلى ملابسه لأوّل مرّة: سروال رمادي، وسترة زرقاء حائلة، وبينهما ثوبٌ صوفيٌّ خشن نَسَجَتْهُ يدٌ غير ماهرة، وحذاء رياضي رصاصي من النّوع الذي شاع استخدامه بين الشّباب. أحسَّ بنظرتي فقال:

ـ أعمل لإعالة أسرتي وأدرس.

سألته: ونظام الغيابات، ماذا تصنع به؟.

قال بمرارة: نظام قاس، مجحف، يدلّ على تخلّفنا. لا أدري هل يريدون مجرّد الحضور، أم الدّراسة والفهم؟!.

قلت ضاحكاً: مجرّد الحضور، بعد غياب الدّراسة والفهم.

ابتسم قائلاً: الأنظمة هي السّبب.

قلت: بل الحياة بأسرها، تَغيّر كلّ شيء عمّا عهدناه.

سأل بذكاء: أيدلّ ذلك على فشلكم في التّوجيه؟.

أدهشتني جرأته. أردفتُ: الأنظمة العامّة هي الموجّهة لحياة بلد ما.

قال: أليس المثقّفون هم قادة الأمم؟.

قلت: كلام كتب السّياسة هي الموجّهة، ومثقّفو تلك السّياسة واجهة إعلاميّة، أمّا المعارضون فيأتون في آخر الرّكب.

قال بإصرار: في العالم الثّالث.

أجبت: لا، في العالم كلّه.

قال: أين تضع لوركا؟.

ـ أُعدم.

ـ إلاّ أنّه أثّر في الثّقافة الإسبانيّة، وأوْجَدَ لنا كاتباً كبيراً مثل غابريل غرسيا ماركيز الذي قدّم رواية تدين كلّ دكتاتوريّات العالم: **خريف البطريرك**.

ابتسمت وقلت: لم يمت بعد ماركيز، ولا ندري ماذا سيكتب بعد أن نال جائزة نوبل.

قال: يبدو أنّك لا تثق به كثيراً؟

قلت: لا أثق كثيراً بالأحياء، يتغيّرون؛ المغريات كثيرة.

قال: إذا تغيّر جون شتاينبك أمام إغراء الدّولار وناصَرَ لعبةَ أميركا في فيتنام، فإنّ پاسترناك لم يتغيّر. وأنت أيضاً لم تتغيّر.

أجبت: ما قيمتي إزاء هؤلاء الكبار؟ في وطني لا يعرفني إلاّ القليل.

قال: لأنّك في عالم ثالث، غير منتم إلى فئة سياسيّة. ولو كنت منتمياً إلى مثل هذه الفئة لقامتْ وسائلُ الإعلام بدورها.

حاولتُ أنْ أكون حذراً في الحديث معه. بدأ الشّك يتسرّب إلى نفسي. لكنّني لم أستطع المراوغة أمام صراحته. قلتُ: لأمُتْ بعد تغيّر النّظام.

ضحك وقال: ستبقى مادمتَ تكتب للشّعب، للإنسان في عالم مجنون.

ودّعني بحرارة قائلاً: أثقلتُ عليك، أردتُ أن أعرفك كما تصوّرتك من كتاباتك، كنتُ مصيباً في تقديري.

انصرف مسرعاً، وتركني في حيرة من أمر شاب مثقّف في بلد أضحتْ فيه الثّقافة مَعَرّةً للإنسان. نظرتُ إلى الصّوب الآخر من النّهر. بدتْ «باشطابية» مهدّمة منهارة، وتلاشتْ عظمةُ «قره سراي» أمام الجسر الخامس الذي التهم الأحياءَ الأثريّة القديمة بأمعائه الحديديّة الطّويلة، وبدت منارة الحدباء أكثر انحناء آيلةً إلى السّقوط والتّلاشي، وبدت لي دور «قليعات» الأثريّة أشبهَ بمكعّبات يصنع منها طفلٌ أبله أشكالاً متنافرة. أحسَستُ بالاغتراب في مدينتي التي عشت فيها ثماني وستّين سنة. إلاّ أنّ شيئاً واحداً شدّني إلى الأرض: حديث الشّاب ذي النّظرات الصّامتة الذي لم أعرف اسمه، وقرأتُ شعره.

مضت الأيّام. لم يتغيّر شيءٌ في حياتي غير افتقادي الشابّ ذا النّظرات الصّامتة. لم أعد أراه في الفصل ولا في ممرّات الكليّة. اختفىٰ تماماً. حاولتُ أن أسأل عنه، لكنّني لا أعرف اسمه. انتابني القلق لغيابه. تذكّرتُ مكان جلوسه، بين «محمّد ونان، وتوفيق كاظم»، وهما أكثر الطّلبةِ مناقشةً ومتابعةً. أرسلتُ في طلبهما. سألتهما عنه. أجاب توفيق: ذهب إلى قريته. أمّه مريضة بحاجة إلى النّقود، ذهب ليوفّر لها المبلغ اللاّزم لإجراء عمليّة جراحيّة خطرة.

عقّب محمّد ونان: شاب عصامي، عمل منذ صغره لتوفير متطلّبات أمّه وأخيه.

سألت: أبوه ماذا يعمل؟.

أجاب محمّد ونان: قصّة قديمة. مات وتركهم من غير معيل، وعُمْرُ «إبراهيم» لم يتعدَّ الرّابعة، أمّا أخوه فلم يرَ أباه. فعمل إبراهيم لتوفير أسباب العيش لهما.

سألت: وأخوه؟!

قال توفيق: طالب في كلية الطّب، متفوّق، يقدّم له إبراهيم كلّ ما يريد.

قلت: في مقدوري أن أقدّم له ما يريد من مال.

أجاب محمّد ونان: إنّه شديد الإحساس بكرامته، ترك الدّراسة سنة كاملة، ليوفّر متطلّبات كلية الطّب لأخيه. عرضنا عليه المساعدة، رفض بشدّة...

قلت: ماذا يعمل؟.

أجاب توفيق: بنّاء ممتاز، وأفضل من يُعنَى بأشجار النّخيل.

لُذْتُ بالصّمت، وأنا أفكّر بالظّروف الصّعبة التي يمرّ بها إبراهيم في سنته الدّراسيّة الأخيرة. احترم محمّد ونان وتوفيق صمتي، فخرجا وتركاني غارقاً في دخان لفافتي.

ذات يوم رأيتُه أمامي في الممر بعد انتهاء محاضراتي. حيّاني. دعوتُه إلى غرفتي، بادرته: «أين غبت طوال هذه المدّة»؟.

قال بجمود مَنْ يريد قطع الحديث: مشكلات اعترضتني وأنهيتها.

قلت: كان بالإمكان حلّها بطريقة أسهل.

قال بالصّلابة نفسها: عالجتها بأسهل الطّرق.

سألته عن صحّة والدته، فأجاب بأنّها قد تحسّنت إلاّ أنّها تحتاج إلىٰ عمليّات أخرى. عرضتُ عليه المساعدة. رفضَ شاكراً مدّعياً بأنّه قد هيّأ لكلّ الاحتمالات. دعوتُه للغداء كي أجد فسحة من الوقت أستطيع خلالها تقديم المساعدة له. اعتذر شاكراً. ساد بيننا صمت قصير. ودّعني وانصرف.

عجبتُ لصلابته واعتداده بنفسه في مجتمع سادت فيه المادة والمظاهر. وددتُ لو قدّمت لإبراهيم ما يطلبه كما فعلت مع كثيرين غيره مرّوا في حياتي من طلبة وغير طلبة. إلاّ أنّه سدّ كلّ باب في وجهي ولم أعد قادراً علىٰ مفاتحته بالأمر.

كنتُ جالساً في مقهى قبالةَ الجامعة أشرب قهوتي، عندما حيّاني إبراهيم واستأذن بالجلوس. بادرني: «أعتذر عن موقفي المتصلّب ذلك اليوم. لا أحب الذّهاب إلى غرفة أستاذ؛ الطّلبة يعلّقون، ويتّهمون الطّالب تهماً غريبة، وأنا أكره أن يتهامس عليّ أحد».

ضحكنا من مستوىٰ التّفكير الذي انحدر إليه الطلاّب. تشعّب الحديثُ بيننا. حدّثني عن مرض أمّه وطمع الأطبّاء، وتحوّلِ هذه المهنة الإنسانية إلىٰ تجارة بخسة. سألته: «كيف سمحت لأخيك أن يمتهن هذه المهنة؟!» رأيت دموعاً حائرة في عينيه، قال باعتداد: «إنّها فرصتنا للثّأر لأبي، نحن القرويّين نقدّس الثّأر». أبنتُ عن عدم فهمي. أوضح قائلاً: «أبي قتله طبيب».

بانت الدّهشة في وجهي، وأردف: امتنع عن علاجه. طلق ناري أصابه، الصّراع الدّائر بين الشّعب إبّان حكم عبد الكريم قاسم، تذكرُه

ولاشكّ، كان أبي أحد ضحاياه الأبرياء. أصابه أحدهم برصاصة في رجله، نقلوه إلى المستشفى، سقطت صورة عبد الكريم قاسم من جيبه، فامتنع الطّبيب عن معالجته حتىٰ تسمّم الجرح ومات. كنت في الرّابعة من عمري. أمّا أخي فلم يكن قد وُلد بعد. هذا الموقف يفسّر لك ما ألنا إليه.

قلت بابتسامة مغيّراً جو الكآبة والذّكريات القاتمة التي سيطرت على المكان: لم أفهم كيف سيثأر أخوك لأبيك؟!.

ـ يأخذ من مهنته روحها وإنسانيّتها ويقدّم ما يستطيع تقديمه لمساعدة المحتاجين.

ـ لن يكون فاعلاً في هذا الجو المشحون بالمنفعة والكسب غير المشروع.

ـ أعرف أخي جيّداً. سيفعل!

ـ لن يَدَعوه.

ـ يقاتل عندئذٍ من أجل مبادئه.

ـ كلام شباب. الحياة شيء آخر.

نظر إليّ نظرة عميقة وسألني: وأنت لماذا تسعى لمساعدة الآخرين؟ لماذا تريد مساعدتي مثلاً؟!

قلت وقد فاجأني السّؤال: أنا شيء آخر، جيل قديم. مازلت

فضـــــــــاءات مالك الحزين

١ ـ الوردة اليابسة

ربّما.
أفتحُ البابَ لي
ألمحُ الوجدَ في هدأةِ الحاجبينْ
ربّما.
أنهضُ الشعرَ أو أعثرُ الوزنَ في المقلتينْ
ثمّ أغرقُ في الحلمِ:
«بيتي، هنا، وردةٌ
نادمتْ لونَها.
والفراشاتُ أجنحةٌ من نُضارْ.
والصباباتُ مملكةٌ من ندى،
تحملُ الآسَ، والنّبعَ، والقافلهْ.
والطّريقْ،
زنبقيُّ الخطىٰ.
والخطىٰ نبأةٌ
فالضحىٰ
سيّدُ النّور، ملقًى علىٰ جبهةٍ
لامستْ خفقةَ الصّوم والنّافلهْ.
هاهنا، يخلعُ الماءُ أرديةَ الحزنِ والأسئلهْ
مثلما تخلعُ الرّوحُ أثوابَها
● يا صغيري،
تقولُ التي غادرتْ عشَّها في رياحِ الشّتاءِ:
«أبتنِ البيتَ من حُلّةِ العنكبوتْ
تضطجعْ وردةُ الأسيجهْ
غابةٌ من كروم العشيّاتِ والحلمة الدافئهْ.
يا صغيري.. هنا أستودعتْ ثديَها الأرضُ
فالمورقونْ
من دمي، يفتحون القوافي التي غادرتْ رحمَها
أبتنِ آلـ...».
وأنتضىٰ وجهُها سُوْرَةَ البرتقالْ.
●● رقّةَ الآس والبرتقالْ
كيفَ خلّفتِ لي
زهرةً في إناءْ؟
● مُرَّ بي
فالمساءُ،
متعبٌ.. آهِ من ضِلّةِ الرُّوحِ في جنون السؤالْ
مُرَّ بي
●● ربّما..
ربّما ينهضُ الحلمُ في نفحةٍ من حنينْ
ربّما..
نلتقي بينَ بينْ.

٢ ـ الهبوط

أقولُ لسربِ القطا:
أعِرْني جناحاً
أمتْ بين وقع خطىٰ صبيتي الزُّغبِ، نضوَ حَمَامْ
ينوح علىٰ إلفِهِ.
أقولُ لسربِ القطا: إنَّ وجهيَ بعضُ رحيلِ النّدىٰ.
آهِ.. يا ضَلّةَ الرُّوحِ،
منّي عليكِ السّلام.

أحمل مُثُلي. وفي إمكاني المساعدة. لديّ ما يفيض عن حاجتي، فلماذا لا أساعد من أتمكّن من مساعدته؟!.

قال مبتسماً: هو كذلك. أنت لست إنساناً فريداً في هذا المجتمع.

قلت وقد غلبتني حجّته: أنا إنسان زاهد في الحياة، لا مسؤوليّة أمامي، ولا أسرة...

قاطعني قائلاً: مسؤوليّتك أكبر، الشّعب كلّه، أليس الأديب ضمير الأمّة كما تقولون؟!.

وجدت الفرصة سانحة لتقديم المساعدة له. أخرجتُ دفتر الشّيكات وسألته: يكفيك ألف دينار؟.

سأل باستغراب: لأيّ شيء؟.

قلت بحنان أبوي: كدفعة أولى لترتيب أمورك.

قال بإصرار: لا أحتاج شيئاً، دبّرت أموري، اشتغلت وجمعت المال الذي أريده.

قلت بالنّبرة الحنون نفسها: لا تكن عنيداً، سدّدْ لي المبلغ بعد التمكّن من جمعه.

قال بالإصرار ذاته: لم أطلب منك عوناً. لم أطلبه من أحد، لا أحتاج لمساعدة أحد، أنا قادر على تدبير شؤون أسرتي بذراعي.

بلغ درجة من الانفعال جعلتني أعيد دفتر الشّيكات إلى جيبي

د. عبد الكريم راضي جعفر

٣ ـ الصفصاف

كلّما مَرَّ بي، قلتُ: طينْ
أوقدَ الماءَ في جذوتِهْ
فأرتدىٰ معطفاً من غمام الشّتاءْ،
خُلّبِ البرقِ، لا ضوء، أو هبّة قاتلهْ
ترتدي نضحَ هذا الغناءِ الضنينْ
ما الّذي يُشعلُ اللّيلةَ، الماءَ والطينَ، والأنّةَ المورقهْ؟
كلّما مَرَّ بي..
زَمَّ نبضُ الهوىٰ مُقلَتَهْ
وأنزوىٰ في بقايا الشّذا
متعباً مثل رفّ النّدىٰ
«يا بقايا جنونِ الهوىٰ»
قلتُ: «يا متعباً يرتدي جلدَ قيس الملوّحِ
بالشّمس والرّملِ، والظبيةِ القاتلهْ
هُزَّ لي نَخلةً طَلْعُها حزنُ صفصافةٍ
أرتمِ شاهداً في مساءٍ حزين».
مَرَّ بي مسرعا،
مَرَّ بي،
وأمّحىٰ.

٤ ـ الدُّوار

يقولُ لوردِ البنفسجِ: سورٌ لوجهيَ يندقُّ
مستفرداً بالعِطاشْ
فينفطر الصّائمون جوًى..
يستشيط عذوقاً من الحزنِ، حلوِ التلفُّتِ،
محتفلٍ بالصَّدىٰ.
وحيداً يسائل عشتارَ
ـ كيف تكونُ السَّماءُ
ظلالَ هجيرٍ؟
ـ وكيف تجيئين مثخنةً بالنوارْ؟.
أقولُ لوردِ البنفسجِ:
بيني وبين افتضاضِ البكارهْ
دُوارٌ، فموتُ.
أليستْ مهاوي الثمارْ
يداً في الترابِ القريبِ،
ومحضَ إشارهْ؟

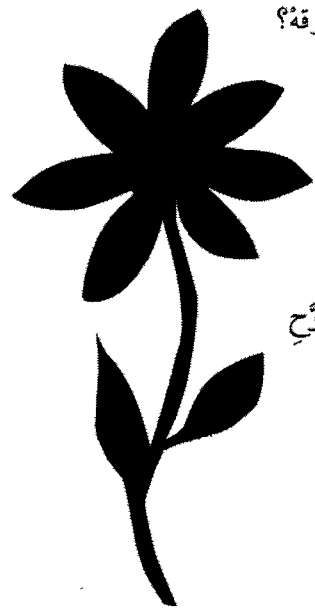

٥ ـ وحشة

للعصافير في اللّحظةِ الموحشهْ
رفّةٌ تستريحْ.
للعصافير أعشاشُها
في اللّيالي العصيّة والنّظرةِ المدهشهْ؛
غيرَ أنّ الّذي أودعَ الحزنَ في مالكٍ
حفنةٌ من رمادٍ وريحْ.
ـ مالكٌ، بينك، الآنَ، والمنحنىٰ
غابةٌ من يمامْ
فانْتَبِهْ، مَرّةً، إنّ في سَوْرةِ الرُّوحِ والأسئلهْ
طائراً لا ينامْ.

قائلاً: يا لك من رجل عنيد.

أجاب: لماذا تفرض مساعدتك على الآخرين؟ أتطلب الشّهرة؟ لو أخذتُ منك مالاً ما حدّثت أحداً به، لا ترضىٰ كرامتي بذلك. أم أنّ إحساسك بعدم حاجة أحد إليك يجعلك تبعثر مساعداتك يميناً وشمالاً؟!

قلت وأنا أحسّ بخيبة لتشنّج موقفه: أنا لا أقدّم مساعدة إلاّ إلى من يستحقّها، وأنا أراك كذلك. أنت مثل ولديَ. أريد أن أساعدك حتىٰ تنهي دراستك. لا أطلب منك أيّة خدمة مقابل مساعدتي.

قال وقد عاوده الهدوء: لا أحتاج أيّة مساعدة من أيّ كان.

قلت محاولاً تلطيف الجوّ: أنا لست أيّاً كان.

أجاب: أنت أستاذ فاضل وكاتب كبير، إلاّ أنّك مساعد ملحاح. تفرض إحسانك على الآخرين. تشعرهم بأنّهم أقلّ إنسانيّة منك، وهذا بحدّ ذاته إحساسٌ متعالٍ. قد يكون الآخرون أكثر منك إنسانيّة، إلاّ أنّهم لا يمتلكون إمكاناتك المادّية.

قلت وأنا أحسّ بغصّة: إنّه تعريض لا أستحقّه. فأنا أنظر إليك كأنّك ولدي، لو طلبتَ منّي أيّ مبلغ تريد لقدّمته إليك بسعادة.

أجاب بنبرة ليّنة: أنا لا أعرّض بك، وإنّما أكشف حقيقةً غابت عنك: وهي أنّ فرض المساعدة أشدّ وطأة من طلبها. أنا بحاجة إلى مساعدة فعلاً، قد تخلّصني من مشكلات كثيرة، ومن خسارة السّنة الدّراسيّة هذه. إلاّ أنّني أرفض مساعدة إجباريّة، أرفض إحساناً قسرياً أو اختيارياً.

قلت بذعر: تترك الدّراسة؟ جننت.

أجاب بهدوء: قد ألجأ إلى هذا الحلّ إذا اضطررت.

قلت: مساعدتك لا تكلّفني شيئاً. ولا ترهق ميزانيّتي.

ـ أعرف ذلك، أعرف أنّك غني. إلاّ أنّني أرفض أيّة مساعدة من أحد، ومنك بالذّات.

قلت وقد بدأت أفقد اتّزاني: لم يبق في العمر إلاّ القليل، سأكتب كلّ ثروتي باسمك، يؤول كلّ ما أملك إليك، تصرفه على هواك، تسعد به أسرتك.

ـ المال لا يحقّق السّعادة، أنت تتحدّث بلغة مبادئ اليوم التي تنكرها، السّعادة أن تفعل ما ترضىٰ عنه، ولكن صارحني لماذا تريد فعل ذلك؟

ـ لا أريد أن تذهب ثروتي إلى أناس لا يستحقّونها.

ـ الشّرع يقول هذا، القوانين تفرضه.

ـ القانون حمار نسيّره كيفما نريد.

ـ ترى هل تغيّرت نظرتك للحياة؟ هل أسفت لأنّك لم تكوّن أسرة فأردت أسرةً جاهزة تشتريها بأموالك؟ الإنسان أثمن رأس مال يا سيّدي.

قلت بتوسّل: أرجوك تعقّلْ، اقبل مساعدتي، هَبْها ديناً، لا تترك دراستك.

استأذن بالانصراف وهو يقول: هذا شأني.

أحستُ بالانهيار التّام. ازدادتْ رغبتي في مساعدته. انتابني الحنق منه لأنه خالف أرادتي كما لو أنّه كان ابناً لي يعاندني، ويخرج عن طاعتي.

لم أره بعد ذلك في محاضراتي. سألت عنه صديقيْه. تدبّر جواباً غير مقنع. وكنتُ إذا ما التقيت به في ممرّات الكلية، يحيّيني وينصرف دون أن يدع لي مجالاً للحديث معه. ومالبث أن اختفى تماماً. تفقّدتُه، فعلمت أنّه قدّم طلباً لتأجيل دراسته. عاد إلى أهله، إلى قرية قريبة من المدينة. حصلت على عنوانه بعد جهد. كتبتُ إليه رسالةً أدعوه فيها للعودة إلى دراسته، وتقديم ما يحتاجه من مال يعدّه ديناً عليه إذا أراد. لم أتلقَّ جواباً. فكّرتُ أن أسافر إليه لأثنيه عن عزمه. نصحني صديقاه بعدم السّفر إليه، فلا قوّة تثنيه عن عزمه.

ومضت بي الحياة رتيبة كئيبة إلاّ أنّني لم أنس نظرات إبراهيم العميقة الصّامتة.

ـ ٢ ـ

كانت البدايةُ مع المحاضرة الأولىٰ لمادّة النّقد الأدبي. تلقّيتُ لأوّل مرّة محاضرةً عمليّة بعد أن أمضيتُ في الكلّيّة أربعَ سنوات. لم يكن هذا رأيي وحدي إنّما هو رأي الطّلبة الذين يقرأون الكتب الخارجيّة على قلّتهم ورأي الآخرين كذلك الذين لا يفقهون شيئاً خارج الكتاب المقرّر. لم يكن الأمر جديداً علينا. فقد سمعنا الكثير عن الدّكتور مؤيّد المطلبي من طلبة السّنة المنتهية. سألني توفيق كاظم ونحن نعدّ طعامَ الغداء في القسم الدّاخلي: ما رأيك الآن في الكلّيّة؟.

أجبتُه بنظرتي المعتادة. صاحَ بي: الله أكبر من عنادك، كنت مسحوراً بالمحاضرة.

قلت: محاضرة جيّدة. أستاذ متمكّن، وكليّة لا أستسيغها؛ لولا خشيتي أن أُساق جندياً لما دخلتها.

قال توفيق: لماذا سجّلتها الكلّيّة الأولى إذن؟.

ـ أردتُ أن أصبح شاعراً. ولم أعلم أنّها ستنسيني الشّعر ومعلوماتي القديمة.

أعاد محمّد ونان آراء الدّكتور المطلبي على الزّملاء من كليّات أخرى على أنّها آراؤه. أُعجب بها الزّملاء. ضحكنا كثيراً. دعا محمّد ونان الزّملاءَ لحضور محاضرة المطلبي. استلقيتُ على سريري وقد شغلتني أُمورُ الأسرة ومرضُ الوالدة، وفجأة انبثقتْ في ذهني فكرة: لماذا لا أعرض أشعاري على الدّكتور المطلبي؟

في صباح أحد الأيّام ذهبتُ إلى غرفته، بعد شهر أو أكثر من انبثاق الفكرة في رأسي. استقبلني المطلبي بفتور. تعامل معي كظلّ. لم يعجبْني تعامله، فهو فاتر تجاه ما حوله. قرّرتُ ألاّ أذهب إليه ثانية. بعد مدّة لا أستطيع تحديدها نسيتُ شعري. لم أكن متحمّساً لرأيه فيه. استدعاني إلى غرفته. سلّمني الدّفتر بفتور أيضاً. سألتُه عن رأيه فيه، فأجابني بأنّه سجّل ملاحظاته في الدّفتر. قرأتُها، أعجبتني، تعامل مع شعري بجدّية واحترام.

التقيته ذات يوم في الغابات. كان عائداً إلى داره سيراً على الأقدام كعادته في الأيّام الشّتائيّة المشمسة... همّة عالية يُحسد عليها. كنتُ

أعالج قصيدةً أقلقتني تبغي الولادة. رأيته يسير متأمّلاً. قرّرتُ تجاهله بادئ الأمر. لكنّ شيئاً قوياً دفعني إلى محادثته. حيّيْتُه. بدا كمن يعرفني. تحدّثنا في الأدب. أردتُ أن أعرف داخله بعد أن حيّرتني رواياته المعقّدة المليئة بالرّموز. لم أجد فيه غير مثقّف لبرالي. لم أكن أتوقّع أكثر من ذلك من رجل عاش حياة سهلة قضاها في القراءة والكتابة. سرّني أن أجد في مجتمع المادّة هذا الذي سيطر عليه الاستهلاكُ إلى درجة الجنون، إنساناً زاهداً، يرفض ما آل إليه المجتمع من مادية وتخلّف. أدهشتني جرأته، وثورته على الأنظمة المهترئة القديمة التي تتحكّم في مقدرات العالم الثّالث. وددتُ لو سرتُ معه مسافةً أطول لأتعرّف عليه بشكل أفضل، إلاّ أنّ القصيدة التي أعالجها كانت تضغط عليّ باغيةً الخروج. استأذنتُه وعدتُ أدراجي. انشغلتُ بمرض والدتي. قرّرت العودَة إلى القرية. فكّرتُ في تأجيل السّنة الدّراسيّة لأتمكّن من جمع مقدار من المال كاف لمعالجة أمّي. لم أرد أن يشغل أخي «فوزي» بأيّة مشكلة عن دراسته في الكلية الطّبية. عزمت على الذّهاب إلى الأساتذة لغرض إعفائي من حضور المحاضرات وعدم تسجيل غياباتي خلال فترة عودتي إلى القرية. ثقل عليّ الأمر، ووجدت في تقديم سلّة من التّمر إلى مسجّل الغيابات الطّريقَ الأسهل لمحو غياباتي كلّها. انقطعتُ شهرين عن الدّراسة. جمعت مبلغاً من عملي في البناء ساعدني على إجراء عمليّة لأمّي. لكنّها لم تشفَ تماماً. طلبتْ إليّ أن أعود إلى كلّيتي، وأمهلني الطّبيب مدّة ليتمكّن من إجراء عمليّة أخرى لوالدتي.

أخبرني محمّد ونان أنّ الدّكتور المطلبي سأل عنّي، تفقّدني. لم أعرْ الأمرَ كبيرَ اهتمام؛ مشكلاتي الخاصّة تشغلني كثيراً. أصرّ محمّد وتوفيق أن أقابل المطلبي، عرفت أنّ علاقة حميمة تربطهم. رأيته في مقهى «الزّهور» يحتسي قهوته. جلستُ إليه. دار بيننا حديث مفتوح، وجدته شديد الاهتمام بمشكلاتي. لابدّ أن محمّداً وتوفيقاً حكيا له ظروفي الصّعبة؛ أرادا مساعدتي في السّنة التي دخل فيها فوزي كليّة الطّب؛ كان مطالباً بأشياء كثيرة تحتاج إلى المال، عزمتُ على ترك الدّراسة سنةً لتوفير المال. منعني محمّد ونان وأخبرني بأنّه مستعدّ مع الأصدقاء لجمع المال الذي أريد، شكرته على حسن طَوِيّته وطِيبِ مساعدته، إلاّ أنّني رفضتُ أخذ إحسان من أحد. أجّلْتُ سنةً دراسيّة. رحلتُ إلى الحلة. عملت في البناء، جمعت المال الذي احتاجه فوزي.

تشعّب الحديث مع المطلبي ولا أدري كيف حدّثته عن ظروفي وموت أبي بسبب إهمال طبيب. عرض عليّ المساعدة، رفضت. لا أحب أن يحسن أحد إليّ. لم أكن أعلم بأن اهتمامه بي سيتطوّر، يضحي كابوساً ثقيلاً عليّ. عرض أن يعطيني ألف دينار كدفعة أولى أدبّر بها شؤوني. حاولت معرفة الثمن الذي يريده مقابلَ مساعدته تلك. بدا لي أنّه لم يفكّر بأيّ ثمن إطلاقاً. شككتُ في الأمر. زاد حنقي عندما تأكّد لي ذلك. بدا لي شيخاً خرفاً. أبعدتُ الفكرة، فهو يمتلك يقظة فكريّة عالية... ربّما هو مصاب بالهوس أو بنوع من الجنون، ولكنْ لم يبد عليه ذلك بل هو مثال للاتّزان والحشمة.

فاتحني ذات يوم بأنّه مستعد أن يكتب كل ثروته باسمي، فهو لا يريد أن يرثه من لم يستحق ذلك. رأي معقول... ولكن ما معنىٰ أن أكون وارثه؟ ما علاقتي به؟ لم أحدّثه غير مرّات قليلة، ورغبة في الاستطلاع. إنّه لا يهمّني في شيء، لا أهتمّ كثيراً بمحاضراته كما يفعل الآخرون، لا يهمّني النّجاح ولا الشّهادة من كلّيّة لا تهمّني. حتى الشّعر لم أعد أرغب به. لماذا يريد إثقال كاهلي بإحسانه؟! أنا الذي تعوّد منذ صغره أن يكافح ويكسب بعرق الجبين. لستُ عاجزاً ولا متسوّلاً ليكلّمني بهذا الأسلوب. أرفضه، لا أريد أن أكون ولده، ولا وريثه، لا علاقة تربطني به. لم أكن أعرفه سمجاً إلى هذا الحدّ غبيّاً. كلّ أولاء النّاس الذين يتكالبون على جمع المال، أفضل من إحسانه. ترى ما العبء الذي ينوء به؟ إنّه رجل زاهد في الحياة، رجل يريد التخلّص من ثروته، رجل يسير عكس التيّار. ليتبرّع بها إلى الملاجئ الخيريّة، ليبنِ مسجداً أو مدرسة أو قسماً داخليّاً! ما شأني أنا؟ ما معنى أن أكون وريثه ولست وارثاً له؟

لم أعد أتحمّل ثقل محاضرات الدّكتور مؤيّد المطلبي.. مجرّد رؤيته تسبّب لي صداعاً. انقطعتُ عن حضور محاضراته كلّما ازداد إعجاب محمد ونّان وتوفيق كاظم والآخرين به. ازددتُ له مقتاً. أصبحتُ مريضاً بداء المطلبي. كدت أفقد توازني. لابدّ لي من سبيل للخلاص من حالتي التي أخذت تستعصي بمرور الزّمن. قال لي توفيق ذات يوم ونحن نتناول الطّعام الذي أعددناه في القسم الدّاخلي: إبراهيم، أتعرف أنّك تقلّد الدّكتور المطلبي في حركاته؟

غضبتُ. لعنتُ، تركتُ الطّعام استعداداً للخروج عندما قال محمّد ونان: أنت تقلّده في كلّ شيء، شعرك، رؤيتك للحياة، كلامك؛ إنّه يسكنك!

ضربتُ محمد ونان بشدّة. الجميع يضحكون، يؤكّدون مقولة محمّد ونان. هل يمكن أن أكون مسكوناً بالمطلبي؟! إنّني أكرهه. لا أطيقه، كابوس يثقل عليّ. عندما يريد الزّملاء في القسم الدّاخلي إغاظتي يتحدّثون عن محاضرات المطلبي، أو يضعون واحداً من كتبه على منضدتي. مزّقتُ كتباً عديدة أغاظتني. ثقل عليّ مزاحُ الزّملاء كما ثقل ظلّ المطلبي على كاهلي. لابدّ لي من مخرج، وإلاّ فقدت أعصابي. أمامي طريقان لا ثالث لهما: قتل المطلبي أو الابتعاد عنه... إنّه لا يستحق أن ألوّث يديّ بدمائه؛ أدخل السّجن. السّجن من أجل إنسان يفرض إحسانه علىٰ الآخرين؟ لا، العودة للقرية أسلم.

في اليوم التّالي قدّمتُ طلباً لتأجيل الدّراسة. سافرتُ إلى قريتي. بعد عنّي ثقلُ المطلبي وإحسانه. السّنةَ القادمة أنتقلُ إلى بغداد أو أيّة جامعة أخرىٰ تقبلني.

عدتُ إلى العمل في البناء. انشغلتُ بالعمل، والعناية بأمّي، والتّفكير بمستقبل أخي. إلاّ أنّ شيئاً واحداً لم يفارقني: وجه المطلبي وهو يتوسّل إليّ أن أقبل مساعدته، أن أكون ابنه، أن أكون وريثه.